الفصل الخامس والستون

الروح والنفس والقول بالدهر

ويحملنا قول بعض الجاهليين بوجود البعث ، وبالصدى والهامة ، على التحرش بموضوع الروح وماهيتها عند أهل الجاهلية ، وعن كيفية تصورهم لها . وقد سأل أهل مكة الرسول عن ماهية الروح ،فنزلت الآية : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروحُ من أمر ربي،وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً »[1]. ويذكر المفسرون أن اليهود حرضوهم على توجيه هذا السؤال الى الرسول ، امتحاناً واحراجاً له[2]. وفي سؤالهم له عن الروح معنى اهتمام القوم بالموضوع ، ومحاولة إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد . وورد أن يهود يثرب هم الذين سألوه عن أمر الروح ما هي؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ فنزل الوحي عليه بالآية المذكورة[3] .

و (الروح) في تعريف علماء اللغة ما به حياة الأنفس ، والذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة . وذهب بعضهم الى ان الروح والنفس واحد ، غير ان

---

١ الاسراء ، الآية ٨٥ .

٢ القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٥) .

٣ تفسير الطبري (١٥/١٠٤ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٣ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (١٥/٩٣) ، (بيروت ١٩٥٦) ، تفسير ابن كثير (٣/٦١) ، تفسير البيضاوي (١٥/٣٨٢) ، تفسير أبو السعود (٢/٢٣٠) ، تفسير السيوطي (٤/١٩٩ وما بعدها) ، تفسير الكشاف (٢/١٩٧) ، ارشاد الساري (٧/٢١٢) .

الروح مذكر والنفس مؤنثة[1] . وقال بعض آخر الروح هو الذي بـه الحياة ، والنفس هي التي بها العقل ، فإذا نام النائم قبضت نفسه ، ولم يقبض روحه ، ولا يقبض الروح إلا عند الموت . وذكـر بعض العلماء : لكل انسان نفسان : احداهما نفس التمييز ، وهي التي تفارقه اذا نام ، فلا يعقل بها ، والأخرى نفس الحياة ، واذا زالت زال معها النفَس ، والنائم يتنفس . وقد يراد بالنفس الدم ، وفي الحديث : ما ليس لـه نفس سائلة ، فإنه لا ينجس المـاء اذا مات فيه . فعبر عن الدم بالنفس السائلة ، وكما ورد في قول السموأل :

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

وانما سمّى الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه[2] .

وقد يعبر بها عن الانسان جميعه ، وعن الجسد[3] . وهناك كلمـة أخرى ترد في معنى (الروح) ، هي (النسيم) . و (النسم) نفس الـروح كالنسمة ، يقال ما بها نسمة ، أي نفس ، وما بها ذو نسم ، اي ذو روح . والنسم نفس الريح اذا كان ضعيفاً كالنسيم[4] . وقد ربطوا بين النسيم والروح ، لمـا كان قد علق في أذهانهم اذ ذاك من ان الروح نوع من انواع النسيم ، وهو النفس الذي يتنفسه الانسان ، ومن ان النفس من النسم كذلك ، وان بـين التنفس والنفس صلة . والتنفس يكون بالنسيم . ولهذا قالوا لمن يموت موتاً طبيعياً : (مات حتف أنفه) ، و (مات حتف فيه) ، والحتف الموت ، لأن نفسه يخرج بتنفسه من أنفه او فيه . ولأنهما نهاية الرمق ، ومنهما يكون التنفس[5] .

ويظهر من دراسة معاني الكلمات المذكورة ، أن لفظـة (نفس) هي بمعنى الإنسان والجسد في الشعر الجاهـلي القديم ، أما (الروح) ، فبمعنى النفس ،

---

١ تاج العروس (٢/١٤٧) ، (روح) .
٢ اللسان (٦/٢٣٣ وما بعدها) ، (نفس) .
٣ اللسان (٦/٢٣٤ وما بعدها) ، (نفس) .
٤ تاج العروس (٩/٧٤ وما بعدها) ، (نسم) ، اللسان (٢/٤٦٢) ، تـاج العروس (٢/١٤٧) .
٥ تاج العروس (٦/حتف) .

أي التنفس واستنشاق الهواء والريح[1] . وتقابل لفظة (نفس) لفظة (نيفش) Nephesh في العبرانية ، وتطلق على نفس كل كائن حي ، من إنسان أو حيوان ، وبهذا المعنى وردت في العهد القديم[2] . وتقابل لفظة Soul في الانكليزية و Seele في الألمانية . وقد استعملت لفظة Psyche اليونانية بمعنى نفس في العهد الجديد[3] . ومن هذه اللفظة اليونانية أخذ العلماء مصطلحهم Psychology Psychologie ، أي علم النفس ، ثم مصطلحات العلوم الأخرى المتعلقة بموضوع النفس . وهي في الوقت الحاضر علوم عديدة .

أما لفظة (الروح) ، فتقابل كلمة (روح) Ruach في العبرانية ، ولفظة Spirit في الانكليزية ، و Geist في الألمانية . وتكون في مقابل النفس في علم النفس[4] ، وتقابل لفظة Pneuma في اليونانية ، ومعناها الهواء والريح والنفس .

ونجد بين المعاني التي ذكرها علماء العربية للألفاظ المذكورة ، وهي : النفس ، والريح ، والهواء ، والنسيم ، وبين المعاني الواردة في اللغات الأعجمية عنها شبهاً كبيراً ، يرجع الى وجهة نظر الإنسان في تفسير مظاهر الحياة ، وشعوره بوجود شيء في نفسه خارج عن حدود المادة ، أي عن الجسم او الجسد ، لا يمكن أن يمسكه ولا أن يلمسه ، فسمّاه (نفساً) تارة وسماه (روحاً) تارة أخرى ، وفرق بين الاثنين تارة ثالثة . وقد تصور أن النفس والروح ، شيئان لها علاقة بالحياة . فنسب الحياة اليهما او الى أحدهما . ونظراً الى أنهما غير محسوسين ، ولا يمكن الامساك بهما أو لمسهما ، تصورهما الانسان تصوراً يختلف باختلاف درجة مداركه ومقدار ثقافته ودرجة ما توصل اليه من علم في ذلك الوقت .

وقد تصور اليونان النفس ، على انها هواء ونسيم ، وتصوروها على هيأة طائر صغير في شكل الانسان ، او على شكل طير ، او فراشة[4] . وهو تصور عرف عند غيرهم ايضاً ، بل يكاد يكون الغالب على الناس . ولا زال الناس يصورون الروح على هيأة طائر ، يسبح في الفضاء ، فإذا مات الانسان صعدت روحه الى خالقها ، او الى السماء . فالأرواح طيور تكون في الانسان ، اذا انفصلت عن

---

١ Shorter Ency., p. 433.
٢ التكوين ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٠ .
٣ انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٢٦ . Hastings, p. 872.
٤ H. Schmidt, Philosophisches Wörterbuch, S. 518.

الجسد مات ، وأخذت هي تطير مرفرفة في الأعالي . وبهذا الرأي أخـذ بعض الجاهليين تفسير النفس . تصوروا (النفس طائراً ينبسط في الجسم ، فإذا مات الانسان او قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً بصدح على قبره) . (وكانوا يزعمون ان هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش،ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وانها – أي النفس – لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون من بعده فتخبره)[1] . وزعموا انه اذا قتل قتيل ، فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، وهي الهامة ، والذكر الصدى ، فيصيح على قبره اسقوني اسقوني ، فإن قتل قاتله كفّ عن صياحه . وكان بعضهم يقول ان عظام الموتى تصير هامة وتطير. وذكر ان الصدى حشو الرأس ، ويقال لها الهامة أيضاً ، او الدماغ نفسه[2] .

وكان من زعم بعض الجاهليين ، ان الانسان اذا مات او قتل اجتمع دم الدماغ او أجزاء منه ، فانتصب طيراً هامة،ترجع الى رأس القبر كل مئة سنة[3] . ويرجع هذا الرأي الى عقيدة قديمة تعتبر الدم مقراً للنفس ، بل تجعل الدم في معنى النفس ، والنفس في معنى الدم ، وذلك للصلة الوثيقة الكائنة بين الدم والنفس ، ولأن الانسان اذا قتل سال دمه ، فتخرج روحه بخروج الدم من الجسم ، اي خروج النفس من الدم ، بعد ان كانت كامنة فيه . ويمثل هذا الرأي رأي العبرانيين ايضاً في النفس وفي صلتها بالدم ، ورأي غيرهم من الشعوب[4] .

وكان اعتقادهم أن مقر الدم ومركز تجمعه في الدماغ ، ومن هنا قيل : بنات الهام : مخ الدماغ[5] ، فلا غرابة إذا تصوروا ان الروح تنتصب فيه ، فتكون هامة تخرج من الرأس ، وتطير . ويكون خروجها من الأنف او الفم ، لأن النفس يكون منهما . فتتجمع الأرواح حول القبور ، ويكون في وسعها مراقبة أهل الميت وأصدقائه ونقل أخبارهم اليه . ولهذا السبب ، تصوروا المقابر مجتمع

---

١ بلوغ الارب (٣١١/٢) .
٢ تاج العروس (٢٠٧/١٠) ، (صدى) ، (١١٢/٩) ، اللسان (١٠٨/١٦) ، المعاني الكبير (٩٥١/٢ ، ١٠٠٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١٩٩/٢ ، ٣١١) ، الروض الآنف (١٠٩/٢) .
٤ Hastings, p. 101.
٥ اللسان (٦٢٥/١٢) ، (هوم) .

الأرواح ، تطير فيهـا مرفرفة حول القبور . والى هـذه العقيدة أشير في شعر أبي دُواد :

سلّط المـوت والمنون عليهم فلهم في صدى المقـابر هام

وكذلك في شعر للشاعر لبيد :

فليس الناس بعـدك في نقيرٍ وليسوا غير أصداء وهـام[1]

ولهذا سمّوا الدماغ (الطائر) لأنهم تصوروه على صورة طير . قال الشاعر :

همُ أنشبوا صم القنا في نحورهم وبيضاً تقيض البيض من حيث طائر

عنى بالطائر الدماغ . وعبر عنه للسبب المذكور بـ (الفرخ)[2]

وورد أن (الصدى) ما يبقى من الميت في قبره ، وهو جثته[3] ، وقيل : حشوة الرأس ، أي دماغ الانسان الهامـة والصدّى . وكانت العرب تقول إن عظام الموتى تصير هامة فتطير . وقال بعض الأخباريين : إن العرب تسمي ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت اذا بلي ، الصدى[4] .

وقد نهى الإسلام عن الاعتقاد بالصدى والهامة . ورد في الحديث : « لا عدوى ، ولا هامة ، ولا صفر »[5] .

وذكر بعض العلماء أن المراد من (صفر) في الحديث النبوي المذكور دابة يقال إنها أعدى من الجرب عند العرب ، فأبطل النبيّ أنها تعدي . وقال بعض آخر أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه وجعل صفر هو الشهر الحرام ، فأبطله الرسول[6] .

---

١ اللسان (١٢/٦٢٤ وما بعدها) ، (هوم) ،تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٢ تاج العروس (٢/٢٧٢) ، (فرخ) ، (٣/٣٦٤) ، (طير) .
٣ قال النمر بن تولب ، وهو من المخضرمين :
أعاذل أن يصبـح صداي بقفـرة بعيـدا نآنـي ناصري وقريبـي
البرقوقي (ص ٧٥) .
٤ أضربك حيث تقول الهامة اسقوفي
البرقوقي (ص ٧٦) .
٥ اللسان (١٢/٦٢٤) ، (هوم) ،تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٦ اللسان (٦/١٣٣) ، (٤/٤٦٣) ، (صفر) ، (صادر) .

وقد لخص (المسعودي) آراء أهل الجاهليـــة في النفس والروح ، فقال : « كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس ، وآراء ينازعون في كيفياتها ، فمنهم من زعم ان النفس هي الدم لا غير ، وان الروح الهـــواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه ، ولذلك سمّوا المرأة منه نفساء ، لما يخرج منها من الدم ، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفسٌ سائلة اذا سقط في الماء : هل ينجسه ام لا ؟ قال تأبطَ شراً لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله ، كيف كانت قصته ؟ فقال : ألجمته عضباً ، فسالت نفسه سكبـــاً . وقالوا ان الميت لا ينبعث منه الدم ، ولا يوجد فيه ، بدأ في حال الحياة ، وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات بقي اليبس والبرد ، ونفيت الحرارة »[1] .

ثم تطـــرق (المسعودي) الى رأي من قال ان النفس طائر ينبسط في جسم الانسان ، فإذا مات او قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً اليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ، يسمونه الهام ، والواحدة هامة[2] .

ونظراً الى قلة ما لدينا من موارد عن الروح والنفس وعلاقتهما بالجسد ، عند الجاهليين ، فإننا لسنا في وضع نستطيع فيه ان نتحدث عـن رأي عموم الجاهليين في تركيب الانسان . هل هو من (جسد) و (روح) ، أو (جسد) و (نفس) أي ثنائـــي التركيب ، او انه من (جسد) و (روح) و (نفس) ، اي ثلاثي التركيب . فقد رأينا انهم يجعلون الـــروح والجسد شيئاً واحداً أحيانـــاً ، ويفرقون بينهما أحياناً اخرى . ولكننا نستطيع ان نقول ان غالبيتهم كانت ترى ان الانسان من جسد ، هو الجسم ، أي مادة ، ومن شيء لطيف ليس بمـــادة هو الروح او النفس ، وهما مصدرا القوى المدركة في الانسان ومصدرا الحياة . وان بانفصالها عن الجسد ، او بانفصال الجسد عنها يقع الموت .

ويظهر من مخاطبات الوثنيين للأصنام ، كأنهم كانوا يتصورون أن لها روحـاً وأنها تسمع وتجيب . ومن الجائز حلول الروح في الجماد . وقـد ورد عن (ابن الكلبيّ) عن (مالك بن حارثة) أن والد مالك هذا كان يعطيه اللبن ، ويكلّفه

---

١ مروج (٢/١٣٢) .
٢ مروج (٢/١٣٣) .

بأن يذهب به الى الصنم ود ليسقيه،فكان مالك يشربه سراً ويبخل به على صنمه[1] . واذا صح خبر ابن الكلبي هذا ، فإنه يدل على (حارثة) ، وربما غيره أيضاً من عبدة الأصنام ، كان يرى ان الصنم يعقل ويدرك ، يسمع ويرى ، وانه وان كان من حجر ، إلا أنه ذو روح . كما ورد أن من المشركين من كان يرى أن الشمس ملك من الملائكة ذات نفس وعقل[2] .

ويتبين من تشديد النبي في تسوية القبور مع الأرض ، ومن لعن المتخذين على القبور المساجد والسُرُج ، ومن النهي عن الصلاة الى القبور ، ومن حديث : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[3] ، ان المشركين كانوا يقدسون قبور اسلافهم ، ويتقربون اليها ، لزعمهم انهم أحياء ، لهم أرواح ، تعي وتسمع وتدرك ، وتفرح وتغضب وتجيب ، وتنفع وتضر ، ولهذا حاربها الرسول ، وأمر بتسوية القبور ، ابعاداً عن أمر الجاهلية في ذلك ، وخشية العودة الى ما كانت عليه : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »[4] ، تعبير عن معنى هذه المشاركة وعن رأيهم في عبادة الأصنام .

الرجعة :

واعتقد قوم من العرب في الجاهلية بالرجعة: اي الرجوع الى الدنيا بعد الموت. فيقولون ان الميت يرجع الى الدنيا كرة أخرى ويكون فيها حياً ، كما كان[5] . ولعل هذه العقيدة هي التي حملت بعض الجاهليين على دفن الطعام وما يحتاج الانسان في حياته اليه مع الميت في قبره ، ظناً منهم ، انه سيرجع ثانية الى هذه الدنيا ، فيستفيد منها ، فلا يكون معدماً فقيراً . ويفهم من كتب الحديث ان من الناس

---

١ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢١٥) .
٣ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .
٤ الزمر ، الرقم ٢٩ ، الآية ٣ .
٥ تاج العروس (٥/٣٤٨ وما بعدها) ، (رجع) ، (والرجعة : مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم . ومذهب طائفة من فرق المسلمين من أولي البدع والاهواء ، يقولون ان الميت يرجع الى الدنيا ويكون فيها حيا كما كان) ، اللسان (٨/١١٤) ، (رجع) .

من سأل الرسول عن الرجوع الى هذه الدنيا[1] ، مما يشير الى معرفة القوم عند ظهور الاسلام بهذا الرأي .

و « لمّا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عمر بن الخطاب ، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفي،وان رسول الله ما مات، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد ان قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم يزعمون ان رسول الله مات » . ثم جاء (أبو بكر) « وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ؟ فأنصت ، فأبى إلا ان يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ايها الناس ، انه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل[2] .. الى آخر الآية » . « وقال عمر : والله ما هو إلا ان سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت ان رسول الله قد مات » .

وقد اعتقد بعض الجاهليين بـ (المسخ) . وهو تحول صورة الى صورة أخرى أقبح ، وتحول انسان الى صورة أخرى أقبح ، او الى حيوان . كأن يصير إنسان قرداً ، او حيواناً آخر[3] ، او الى شيء جماد . من ذلك ما يراه بعض أهل الأخبار عن (اللات) ، من انه كان رجلاً يلت السويق عند صخرة بالطائف، فلما مات قال لهم (عمرو بن لحيّ) ، إنه لم يمت ، ولكنه دخل الصخرة ،ثم أمرهم بعبادتها وبنى بيتاً عليها يسمى اللات[4] . وما رووه ايضاً عن (أساف) و (نائلة) ، من أنهما كانا رجلاً وامرأة ، عملا عملاً قبيحاً في الكعبة،فمسخا حجرين[5] . وما رووه من أن (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً ،

---

١ النهاية (٢/٧٢) ، (رجع) .
٢ سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ (٢٢ الطبري (٣/٢٠٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢/٢٧٩) ، (مسخ) .
٤ تاج العروس (١/٥٨٠) ، (لت) .
٥ تاج العروس (٦/٤٠ وما بعدها) . (اسف) ، اللسان (١٠/٣٤٨) ، الاصنام (٩ ، ٢٩) ، الروض الآنف (١/٦٤) ، المحبر (٣١٨) .

فمسخه الله كوكباً[1] .

وورد أن بعض الملائكة عصى الله فأهبط الى الأرض في صورة رجل تزوّج أم جرهم فولدت له جرهماً . وأن ما تولد بين الملك والآدمي يقال له (العلبان)[2]. وان (النسناس) جنس من الخلق يثب أحدهم على رجل واحدة ، أصلهم حيّ من عاد عصوا رسولهم فمسخوا نسناساً ، لكل إنسان منهم يـد ورجل من شق واحد ، ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم[3] .

وقد ذكر (الجاحظ) أمثلة من امثلة المسخ التي وقعت للحيوان عـلى اعتقاد الناس ، من ذلك : اعتقادهم ان السمك (الجريّ) والضباب كانتا أمتين من الأمم مسختا . واعتقادهم ان (الإربيانة) كانت خيّاطة تسرق السلوك ، وانها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها ، ومن ان (الفأرة) كانت طحّانة ، والحية كانت في صورة جَمَل ، وان الله عاقبها حتى لاطها بالأرض ، وقسم عقابهـا على عشرة اقسام ، حين احتملت دخول ابليس في جوفها حتى وسوس الى آدم من فيها . ومن ان الإبـل خلقت من أعناق الشياطين ، وان الكلاب امة من الجن مسخت ، وان الوزغة والحكأة من ممسوخ الحيوان[4] .

ومن أمثلة المسخ : جرهم،فقد زعم ان جرهماً كان من نتاج ما بين الملائكة وبنـات آدم . وكان بعض الملائكة قد عصى الله ، فأهبط الى الأرض في صورة رجل ، تزوج أم جرهم فولدت له جرهماً[5] . وزعموا ان سهيـلاً كان عشاراً باليمن ، فلما ظلم مسخه الله نجماً[6] . و (الزهرة) ، وقد زعموا انهـا كانت بغياً عرجت الى السماء فمسخها الله شهابـاً[7] . و (البسوس) ، وقد زعموا انها كانت امرأة مشؤومة اسمها : البسوس ، أعطي زوجها ثلاث دعوات مستجابات، وكان له منها ولد ، فكانت محبّة له . فقالت اجعـل لي منها دعوة واحدة . قال : فلكِ واحدة . فماذا تريدين ؟ قالت : ادع الله ان يجعلني أجمل امـرأة

---

١ تاج العروس (٧/٣٨٤) ، (سهل) ، الحيوان (١/٢٩٧) .
٢ الحيوان (١/١٨٧) ، (٤/٧٠) ، حاشية (٦) .
٣ تاج العروس (٤/٢٥٧) ، (نس) .
٤ الحيوان (١/١٥٢ ، ٢٩٧) ، (٦/٦٨ ، ١٥٥) ، (٤/٦٨) .
٥ الحيوان (١/١٨٧) ، (٤/٦٩) ، الروض الآنف (١/٩٧) .
٦ الحيوان (١/٢٩٧) ، (٤/٦٩) .
٧ الحيوان (٤/٦٩) .

في بني اسرائيل . ففعل فرغبت عنه ، لما علمت أن ليس فيهم مثلها ، فأرادت سيئاً . فدعا الله تعالى عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة ، فذهبت فيها دعوتان . فجاء بنوها ، فقالوا : ليس لنا على هذا قرار،قد صارت أمنا كلبة يعيرنا بها الناس : فادع الله تعالى ، أن يردهـــا الى حالها التي كانت عليها ، ففعل . فعادت كما كانت : فذهبت الدعوات الثلاث بشؤمها ، وبها يضرب المثل[1] .

ونجد عقيدة (المسخ) عند غير العرب أيضاً . ففي التوراة أن الله مسخ امرأة لوط ، فصارت عمود ملح[2] . ونجدها عند الهنود وعند غيرهم من الأمم القديمة . وقد تسرب من اليهودية الى العرب المسلمين كثير من القصص الوارد في المسخ .

وقـــد أنكر بعض المتكلمين (المسخ) ، وأنكره قوم آخرون ، لكنه جوّزوا (القلب) . وهو أن يُقلب ابن آدم قرداً من غير أن ينقص من جسمـــه طولاً أو عرضاً[3] .

الزندقة :

وقد أشار بعض الأخباريين الى اعتقاد بعض قريش بالنور والظلمة ، زاعمين انهم أخذوه من الحيرة . ويسمي الأخباريون أصحاب هـذا الرأي (الثنوية) ، وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش : (الزنادقة)[4] . ولم يذكروا شيئاً عن زندقة تلك الجماعة من قريش ولا عن رجالها . وأشار بعض أهل الأخبار الى وجود الزندقة والتعطيل في قريش : « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش »[5] . وقد وصفوا الزنديق بأنه القائل بدوام بقاء الدهر[6] ، ولا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الخالق . فهو دهري ملحد لا يؤمن بوجود إلـه واحد ، وهو من (الثنوية) على

---

١ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٢ التكوين ، الاصحاح ١٩ ، الآية ٢٤ وما بعدها .
٣ الحيوان (٤/٧٣) .
٤ اللسان (١٢/١٢) « زندق » ، (١٠/١٤٧) ، « بيروت ١٩٥٦ » ، تاج العروس (٦/٢٧٣) ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة) ، المعارف (٦٢١) ، المعرب ، للجواليقي (١٦٦) .
٥ البدء والتأريخ ، (٤/٣١) ، بلوغ الارب (٢/٢٢٨) .
٦ اللسان (١٠/١٤٧) « بيروت ١٩٥٦ » ، اللســـان (١٢/١٢) ، « زنـــدق » « بولاق » .

رأي بعض العلماء[1] . والى هذا المعنى في تفسير زندقة قريش ، ذهب أكثر أهل الأخبار . وقد عدّ (أبو العلاء) المعري (شداد بن الأسود الليثي) المعروف أيضاً بـ (ابن شعوب) ، وهـي أمـه ، شاعر زنادقة قريش . وذلك لشعره الذي فيه :

ألا من مبلـغ الرحمن عني بأني تارك شهـر الصيام
اذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا ؟ وكيف حياة أصداء وهام
أتترك ان ترد الموت عني وتحييني اذا بليت عظامي[2]

والزندقة كلمة معربة ، ذكر علماء اللغة انها أخذت من الفارسية ، أريد بها في الأصل الخارجون والمنشقون على تعاليم دينهم ، فهي في معنى (هرطقة) . وقد صار لها في العهدين : الأموي والعباسي مدلول خاص ، حيث قصد بها (الموالي الحمر) ، الذين تجمعوا في الكوفة ، وكانوا يظهرون الاسلام ويبطنون تعالـيم المجوسية والإلحاد[3] .

وفي كلام أهل الأخبار عن الزندقة ووصفهم لزندقة قريش إبهام وغموض وخلط. وإذا كان الزنديق هو القائل ببقاء الدهر ، وبعدم وجود عالم ثان بعـد الموت ، فتكون الزندقة (الدهرية) ويكون الزنديق هو الدهري لقوله بالدهر وبأبديـة الكون والمادة[4] . أما القول بالثنوية : بالنور والظلمة ، وبالكفر والالحاد، فشيء آخر ، يختلف عن القول بالدهر . والظاهر أن الجمع بين القول بالدهر وبالقول بالنور والظلمة وبالكفر والالحاد ، إنما وقع في الإسلام ، بسبب الخلط الذي وقع بين المعنى المفهوم للفظة في الفارسية القديمة وفي الفارسية الحديثة ، وبالمعنى الـذي ظهر للكلمة في الإسلام . والذي تحول الى زندقة بغيضة تحوي العناصر المذكورة، والتي كانت تؤدي بمن يتهم بها الى القتل .

---

١ اللسان (١٠/١٤٧) ، (زندق) ، الغزالي ، فيصل المتفرقة بين الاسلام والزندقة (١٧٣) ، (١٩٦١) ،

٢ رسالة الغفران (٤٢١ وما بعدها) .

٣ « والحمراء العجم ، لبياضهم ، ولان الشقرة أغلب الالـوان عليهم » ، اللسان (٥/٢٨٨) « حمر » ، Shorter Ency. of Islam, p. 659, Muh. Stud., I, S. 150.

٤ المعرب (ص ١٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٢/١٢) ، (١٠/١٤٧) ، طبعة دار بيروت «١٩٥٦ م » .

وقد أشير في القرآن الكريم الى وجود القائلين بالدهر : « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا ، نموت ونحيـا ، وما يهلكنا إلا الدهر »[1] . وهم على حـد قول المفسرين والأخباريين ، من لا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الله . وهو مذهب ودين كان عليه كثير من أهل الجاهلية ، يسخر من البعث بعد الموت ، ويرى استحالة ذلك . ولم يذكر المفسرون أن من عقيدة هؤلاء القول بالثنوية،أي بالنور والظلمة، وبوجود إلهين : إلـه الخير وإلـه الشر .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أسماء (زنادقة قريش) ، فجعلهم : (أبو سفيان ابن حرب) ، و (عقبة بن أبـي معيط) ، و (أبـي بن خلف الجمحي) ، و (النضر بن الحارث بن كلدة) ، و (منبه) و (نبيه) ابنا (الحجاج) الهمّيان ، و (العاص بن وائل) السهمي ، و (الوليد بن المغيرة) المخزومي . وذكر انهم (تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة)[2] . فربط هنا بين الزندقة وبين (نصارى الحيرة) . وقد ذهب (ابن قتيبة) أيضاً ، الى أخذ قريش الزندقة من الحيرة[3] .

والذي نعرفه عن المذكورين،انهم كانوا من المتمسكين الأشداء بعبادة الأصنام . وقد كان (أبو سفيان) يستصرخ (هبل) على المسلمين يوم أُحد ، وينادي : (أُعلُ هُبَلُ ، أُعْلُ هُبَلُ) ، وقد نص على انـه كان من أشد المتحمسين لعبادة الأصنام[4] . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار ، انهم كانوا ثنويين على رأي المجوس ، يقولون بإلهين ، بالنور والظلمة ، وانهم تعبّدوا للنـار ، أو تأثروا برأي مزدك أو ماني الذي أضيف اليه الزنادقة ، ولا نجد في آرائهم المنسوبة اليهم وفي حججهم في معارضة الرسول ما يشير الى (زندقة) بمعنى (ثنوية) ، لذلك فزندقة من ذكرت لا يمكن أن تكون بهذا المعنى ولا على هذه العقيدة[5] .

وللوقوف على زندقة من ذكرت من رجال قريش ، ولتحديد معنى زندقتهم، يجب الرجوع الى ما نسب اليهم من آراء والى مـا عارضوا به الرسول وحاربوه

---

١ الجاثية ، الآية ٢٣ .
٢ المحبر (١٦١) ، (زنادقة قريش) .
٣ المعارف (٦٢١) ، الاعلاق النفسية (٢١٧) .
٤ اللسان (٢١٢/١٤) ، تاج العروس (١٦٢/٨) ، (هبل) ، الاصنام (٢٨) .
٥ راجع معنى الزندقة في مروج الذهب (٢٧٥/١) ، (أثناء حديثه على بهرام) .

من أجله . ويمكن حصر ذلك في أمرين : التقرب الى الأصنام والتعبد لها،والدفاع عنها بقولهم : « ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زلفى »[1] ، ولا علاقة لهذه العقيدة بالزندقة . والأمر الثاني ، هو القول بالدهر وبالتعطيل ، أي بنكران البعث والحشر والنشر . ويتجلى ذلك في قولهم لرسول الله : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فابعث لنا جدّك : (قصي بن كلاب) ، حتى نسأله عمّا كان ويحدث بعد الموت ، وأمثال ذلك مما له علاقة بنفي وقوع البعث . وهو الذي له صلة بالزندقة . فالزندقة بهذا المعنى قول بالدهر وبدوامه ونكران للبعث ، لا الثنوية بمعنى القول : بالنور والظلمة .

وأما ما يرويه أهل الأخبار من أخذ زنادقة قريش زندقتهم من الحيرة[2] ، أو من نصارى الحيرة[3] ، فإن فيه تأييداً لما قلته من أن الزندقة لا تعني المجوسية والثنوية ، وإنما القول بالدهر ، وانكار المعاد الجسماني[4] . وهو قول قريب من قول من أنكر بعث الأجسام ، وآمن ببعث الروح فقط من النصارى ومن غيرهم من أهل الأديان .

والزندقة بهذا المعنى قريبة من رأي القائلين بالدهر ، وهم (الدهرية) الذين أشير اليهم في القرآن الكريم ، في الآية : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر)[5] . وهم من يقول ببقاء الدهر ، وبنكران البعث والآخرة ، والخالق والرسل والخلق على بعض الآراء ، وينسبون كل شيء الى فعل الدهر ، أي الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم . ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ والنعوت التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ، وعُدواء الدهر ، و (الدهر لا يبقي على حدثانه) ، و (الدهر يحصد ربيه ما يزرع) ، وأمثال ذلك من تعابير ، فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما فيه[6] .

---

١ الزمر ، سورة رقم ٣٩ ، الآية ٣ .
٢ المعارف (٦٢١) .
٣ المحبر (١٦١) .
٤ مروج (١٠٢/٢) ، (ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية) .
٥ الجاثية ، سورة رقم ٤٥ ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبرى (١٥١/٢٥) ، (القاهرة ١٩٥٤) .
٦ ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا
ألا انما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر
السندوبي (٨٣ ، ١٧١) .

ونسبوا الإماتة الى الدهر ، فقالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » أي وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر ، انكاراً منهم للصانع . قال أحدهم :

فاستأثر الدهـــر الغداة بهم والدهـــر يرميني وما أرمـــي
يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا ووقرت في العظم[1]

فكانوا في الجاهلية يضيفون النوازل الى الدهر ، والنوازل تنزل بهم من موت أو هرم ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر الذي يفعله ، فيذمونه ويسبونه . وقد ذكروا ذلك في أشعارهم[2] .

ومن الجمل التي تنسب الفعل الى الدهر ، قولهم : « أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر » ، والدهر يجلب الحوادث ، ففي هذه الجمل وأمثالها معنى أن ما ينزل بالإنسان من قوارع ، وما يحلّ به من إبادة هو بفعل الدهر ، فهو إذن المهيمن على العالم والمسخر له[3] .

وقد كان هـــذا الاعتقاد راسخاً في نفوس كثير من الجاهليين ، وفي نفوس كثير ممن أدرك الإسلام فأسلم ، فكانوا إذا أصيبوا بمكروه وبحادث مزعج نسبوا حدوثه الى الدهر ، فسبّوه كما يتضح من حديث : « لا تسبّوا الدهر ، فـــإن

---

١ تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بيروت ١٩٥٥) ، (٧٨/٢٥ وما بعدها) ، (طبعة طهران) .

٢ تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) .

٣ ديار بني سعد بن ثعلبـــة الالي أذاع بهم دهر على النـــاس دائب
فأذهبهم ما أذهب النـــاس قبلهم ضراس الحـــروب والمنايا العواقب
Caskel, S. 45.

ولست اذا ما الدهر أحدث نكبة ورزءا بزوار القرائـــب أخضعـــا
Caskel, S. 50.

والا تعادیني المنيـــة أغشكـــم على عـــدواء الدهر جيشـــا لهامـــا
Caskel, S. 51.

ابن قتيبة : الشعراء (٢٢٩) ،
غنينـــا زمانـــا بالتصعلك والغنى كما الدهر في أيامه العسر واليسر
Caskel, S. 51.

قال زهير بن أبي سلمى :
واستأثر الدهـــر الغـــداة بهـــم والدهـــر برمينـــي ولا أرمـــى
ديوان زهير (٣٨٥) .

اللهَ الدهر » ، أو (فإن الدهر هو الله) . ومن حديث : « يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر الدهرَ ، وإنما أنا الدهر : أقلب الليل والنهار »[1] . وأحاديث أخرى من هذا القبيل . وقد ذكر (الجاحظ) ، أن من الصحابة والتابعين والفقهاء من نهى الناس من قول : طلع سهيل وبرد سهيل ، وقوس قزح ، كأنهم كرهوا ما كانوا عليه من عادات الجاهلية ، ومن العود في شيء من أمر تلك الجاهلية ، فاحتالوا في أمورهم ، ومنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق[2] .

وفي هذين الحديثين توفيق لفكرة الجاهليين في الدهر ، وللعقيدة الإسلامية في التوحيد بأن صير الدهرُ اللهَ ، وصيره بعض العلماء من أسماء الله الحسنى . والذي حملهم على ذلك،على ما أرى ، صعوبة إزالة تلك الفكرة التي رسخت في النفوس منذ القدم عن فعل الدهر ، وعن أثره في الكون ، فرأى القائلون بذلك إزالتها بجعل الدهر اسماً من أسماء الله ، أو هو الله تعالى ، وهو واحد أحد ، والدهر واحد أبدي أزلي كذلك ، فلا تصادم في هذا التوفيق بين الرأيين .

وقد وقع هذا التوفيق على ما أعتقد بعد وفاة الرسول في أمور عديدة نسبت الى الرسول،وقد ثبت عدم إمكان صدورها منه . وللحكم على صحة نسبة الحديثين الى الرسول أحيل القارىء على الطرق التي وردا بها ، والى آراء العلماء فيهما ، وأعتقد أنه إن فعل ذلك فسيجد في نسبتهما الى الرسول بعض الشك ، إن لم أقل كل الشكّ .

وتعبر لفظة (الزمان) عن معنى (الدهر) كذلك . وقد ذهب علماء اللغة الى ان الزمان ، أقصر من الدهر ، اذ يقع على الزمان القصير ، أما الدهر ، فالزمان الدائم ، أي الزمان الذي لا ينتهي بنهاية . وأنا لا يهمني في هذا المكان تفريق العلماء بينهما في الطول والقصر ، انما المهم عندي هو ان الجاهليين استعملوا الزمان استعمالهم للدهر ، ونسبوا اليه ما نسبوه للدهر من فعل في الانسان وفي الحياة والعالم . هذا (زهير بن أبي سُلمى) يتشكى منه في قصيدته التي يمدح بها (هرم بن سنان) . فيقول في مطلعها :

---

١ اللسان (٣٧٨/٥) ، (دهر) ، تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) ، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ، تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بيروت ١٩٥٥) ، صحيح مسلم (٢/١٥ وما بعدها) .

٢ الحيوان (٣٤٠/١ وما بعدها) .

لمن الديارُ بقُنّة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
لعبَ الزمان بها وغيّرها بَعدي سَوافي المُورِ والقَطر[1]

وتجد اللفظة في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين والاسلاميين تعبّر عن (غدر الزمان) وعن (كذبه)[2] وتلوّنه وتلاعبه بمقدرات الانسان[3]. وفي كل هذه المواضع التي استعملت فيها تعبير عن تلك العقيدة التي لا تزال راسخة في نفوس كثير من الناس، وهي ان الحياة قسمة ونصيب وحظ ونحت، وانه ليس لمخلوق على ما يقدره له القدر من سلطان. وان الزمان يلعب بالانسان وبالكون كيف يشاء، مع ان الانسان لو فكر في نفسه وتأمّل في عقله، لوجد انه هو الذي خلق الزمان اي الدهر فأوجده على صورته هذه، بأن حدده وعيّنه بسنين وبقرون، وليس الزمان إلا دوام وبقاء لهذا الكون، وليس له اي فعل حقيقي في هذا الكون، والانسان هو الذي أوجد السنين ليقيس بها طول الزمان، لحاجته الى معرفته، وان حسابه بالسنين مهما سيطول، فإنه لن يبلغ ولن يكون في مقدوره بلوغ نهاية الكون.

والمعنى الذي نفهمه من (الدهر) في الشعر الجاهلي، هو الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم. ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة، فقالوا: يد الدهر، وريب الدهر، وعدواء الدهر، وأمثال ذلك من تعابير. فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه[4].

---

١ وفي بعض الروايات «لعب الرياح»، شرح ديوان زهير (ص ٨٧)، Caskel, S. 44.

٢ أفرحت أن غدر الزمان بفارس قلح الكلاب وكنت غير مغلب
يا مر قد كذب الزمان عليكم ونكأت قرحتكم ولما أنكب
Caskel, S. 51.

٣ ولو سألت سراة الحي عني على أني تلون بي زماني
Caskel, S. 52.

٤ (والدهر لا يبقى على حدثانه)، «والدهر يحصد ربيه ما يزرع».
ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا
ألا انما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر
Caskel, Die Schiksal in der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 48, W. L. Schramaier, über den Fatalismus der Varislamischen Araber, S. 12, Bonn, 1881.

ومن نسب اليه القول بالدهر ، الحارث بن قيس ، المعروف بابن الغيطلة[1] .

وتؤدي لفظة (الأيام) هذا المعنى كذلك ، بل استعملت أجزاء اليوم مثل (الليالي) للتعبير عن تلك الفكرة أيضاً . فالليالي هي كالأيام ، لا يمكن أن يطمأن اليها ، ولا ان يوثق بهـا ، إنها تتلون وتتبدّل ولا تخلص لأحد . وحيث أن الليالي هي أوقات الراحة والاستقرار والهدوء ، وأوقات الانس والطرب والإنفراد بالأحبة ، وهي أوقات الغدر والاغتيال والغارات والغزو في الوقت نفسه ، فيكون ذكرها في الشعر وتفضيلها على النهار وتقديمها عليه ، ونسبة الخير أو الشر اليها أكثر من نسبتها الى النهـار شيئاً طبيعياً . لذلك يجب ألا يستغرب ما نقرأه في الشعر وما نسمعه من أفواه الناس من نسبة تبدل الحال والتلون الى الليالي أكـثر من النهار[2] .

وقد استعملت لفظة (عَوْض) في معنى الدهـر والزمان ، وردت في شعر شاعر من شعراء بكر بن وائل ، فعبر بهذه اللفظة عن زمانه . واستخدام بكري لهذه الكلمة ، يشير الى الصنم (عوض) الذي كانت بكر قبيلة هذا الشاعر تتعبد له[3] . وقد أقسموا بها ، فقالوا : (عوض لا يكون ذلك أبداً)[4] ، ولا أستبعد وجود صلة بينها وبين الصنم (عوض) .

وأما (الحِمام) ، فإنه قضاء الموت وقدره ، يقال : (حُمَّ أجله) اي قضي وقدر[5] . وقد وردت لفظة (حم) ومتعلقاتها في أشعار عديدة بهذا المعنى . اي القضاء والتقدير . فورد (ما حُمّ واقع) . وورد (أحم الله ...) و (حمّه الله) ، و (حمت لميقاتي) ، و (حمّي) ، و (حمام الموت) ، و (حمام

---

١ أنساب (١/١٣٢) .

٢ فان تـك غبراء الخبيبـة أصبحت خلت منهم واستبدلت غير ابـدال
بها قد رأى الحى الجميع بغبطـة بهـا والليالـي لا تدوم على حـال
Caskel, S. 45.

٣ « وعوض معناه أبدا أو الدهر . سمي به لانه كلما مضى جزء عوضه جزء أو قسم . أو اسم صنم لبكر بن وائل » ، القاموس (٢/٣٣٧) ، قال الاعشى :
حلفت بمائـرات حـول عـوض وأنصاب تركـن لـدى السعـير
وقيل ان هذا الشعر لرشيد بن رميض العنزي . والسعير اسم صنم كذلك ، تاج العروس (٥/٥٨ وما بعدها) ، (عوض) .

٤ تاج العروس (٥/٥٨) ، (عوض) .

٥ تاج العروس (٨/٢٥٨) .

النفس) ، و (حمام المنون) ، و (حمام)[1] . وهي من حيث هـذا المعنى كالحتف والأجل والآجال والحتوف والمنون .

القضاء والقدر :

ويسوقنا هذا الموضوع الى البحث عن فكرة القضاء والقدر عنـد الجاهليين . فقد كان بين أهل الجاهلية من كان يقول بالجبر ، وبأن الإنسان مسيّر لا مخيّر . وان كل ما يقع له مكتوب عليه،ليس له دخل في حدوثه . ومن هؤلاء القائلون بالدهر والمنون والحمام وما شاكل ذلك من مصطلحات تشير الى وجود هذا الرأي عندهم .

ولا يعني القول بالجبر ، ان قائله من المتألهين القائلين بوجود خالق أوجـد الكون ، فقد كان من المجبرة من كان ملحداً ، لا يقول بخالق ، وكان منهم من كان مشركاً . كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهـة . فليس لمذهب الجبر علاقة بالخالق ، وإنمـا هو مذهب يرى ان الإنسان مسيّر ، وأنه يسير وفق ما كتب له ، ومنهم من ينسبه الى علة : هـي الله أو الدهر ، ومنهم من لا ينسبه الى أحد وهو مذهب موجود في اليهودية وفي النصرانيـة وفي الإسلام .

ونجد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني (عديّ بن زيد العبادي)، وربما نجدها أيضاً عند سائر إخوانه النصارى ومن كان على هذا الدين من غيرهم من العرب . والـواقع ان الاعتقاد بوجود إلـه خلق الكون منفرداً ، أو آلهة خلقوا الكون مشتركين ، يحمل الانسان على أن يتصور نفسه أنه لا شيء تجاه خالقه أو آلهته وانه من صنعهم ، فـا يقوم به ، هو من صنع الله أو من صنع الآلهة .

---

١ قال البعيث :
ألا يا لقـوم كل ما حـم واقـع وللطـير مجرى والجنوب مصارع
وقال الاعشى :
تـؤم سلامـة ذا فـائش هـو اليـوم حـم ليعادهـا
وقال خباب بن غزي :
وأرمي بنفسي في فـروج كثـيرة وليس لامـر حمه الله صـارف
تاج العروس (٢٥٨/٨) .

وهي عقيدة لا بد أن يكون للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إذ ذاك دخل في شيوعها بينهم . ونكاد نجد أكثر الشعوب الشرقية على هذا الرأي . وأما ما ظهر من نظرية حرية الارادة وقدرة الإنسان على خلق أفعاله واختياره ، فإنه من تأثير الفلسفة الاغريقية التي دخلت النصرانية .

ونرى (حاتم الطائي) وهو من النصارى على رأي ، مؤمناً بالقضاء وبالقدر وبما يأمر به الله ، اذ يقول :

اتيح له من ارضه وسمائه ... حمامٌ ، وما يأمر به الله يفعل

فأسند الأمر والنهي في هذا البيت الى الله ، وأما الانسان فإنه مأمور مسيّر .

ونجده يكل أمره الى الله ، ويدعو قومه الى تسليم أمرهم للإلـه الذي يرزقهم اليوم ويرزقهم غداً :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا ... وإن على الرحمان رزقكم غدا

ونجد (المثقب العبدي) مؤمناً بالله ، وبالقدر . فما يقع للانسان يكون بمشيئة الإلـه وقدره :

وأيقنت إن شاء الإلـه بأنه ... سيبلغني أجلادها وقصيدها [1]

و (القدر) و (المقدر) و (المقدور) و (الأقدار) و (القضاء) ، من الألفاظ القديمة التي كانت تؤدي هذا المعنى الذي نبحث فيه قبل الاسلام . واستعمال المتكلمين للقضاء والقدر وللقدرية ، لا يعني ان تلك الكلمات من الألفاظ التي نبعت في الاسلام . بل ان ظهورها في هذا العهد واشتهارها فيه ، هو لاستخدام العلماء لها في مدلولات معينة وفي مصطلحات وأفكار توسعت واستقرت في هذا العهد .

ونجد الاشارة الى القدر في شعر الجاهليين والمخضرمين بالمعنى الذي نقصده هنا ، اي شيء مقدر مفروض على كل انسان . هذا لبيد الشاعر المخضرم يذكر ان ما يرزقه هو من فضل الله عليه ، وما يحرمه فإنه مما يجري به

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٨) ، (قصد) .

القدر[1] . ونجد فكرة القدر مركزة قوية صريحة في شعره ، فهو يعتقد ان القدر خيره وشرّه من الله ، وان ما يصيب الانسان مكتوب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب . ولا دخل لامرىء في عمله ، فليحمد الله على خيره ، وليشكره على شرّه ايضاً ، فهو العالم وحده بما هو صالح وضار[2] . وشعره هذا لا بد ان يكون مما نظمه في الاسلام ، اذ لا يعقل ان يكون من نظم عصر وثني، لما يتجلى عليه من الطابع الاسلامي في الفكر وفي الأسلوب والعرض .

كذلك نجد هذه العقيدة عقيدة القدر في شعر (زهير بن أبي سُلْمى) وفي شعر غيره من الشعراء . هذا زهير يقول : إن المنايا أمر لا مفرّ منه ، وإن من جاءت منيّته لا بد أن يموت ، ولو حاول الارتقاء الى السماوات فراراً منه[3] . ثم نجده يقول :

وجدت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم[4]

فليس للإنسان دخل في عمله ، وإنما كل شيء يقع له في حياته هو مكتوب عليه . مكتوب عليه أن يموت في أجله ، وأن يعيش الى أجله ، وان يكون غنياً وأن يكون فقيراً ، وليس للإنسان عمل على سلطان الحظ .

ومن القائلين بالقدر ، (عَبيد بن الأبرص) ، الشاعر الجاهلي الشهير ، المقتول في قصة معروفة مشهورة . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتّم المكتوب ، وتراه يتوكل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه ، فيقول :

---

١ فما رزقت فان الله جالبه وما حرمت فما يجري به القدر
ديوان لبيد (ص ٥٤) ، (طبعة ليدن ١٨٩١) .
ولا أقول اذا ما أزمة أزمت يا ويح نفسي مما أحدث القدر
Caskel, S. 20.

٢ من يبسط الله عليه اصبعا بالخير والشر بأي أولعا
ديوان لبيد (٨ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) ، (طبعة بروكلمن)
Ency., III, p. I.

٣ ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء بسلم
شرح ديوان زهير لثعلب (ص ٣٠) ، « وطر بالذي قد حم » ، Caskel, S. 54.

٤ الحيوان (١٠٣/٢) .

من يسأل الناس يحرموه وسائـــل الله لا يخيب
بالله يدرك كلّ خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـــه شريك علاّم ما أخفت القلوب[1]

ونراه يقول في المنايا :

فأبلغ بنيّ وأعمـــامهم بأن المنايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العبـــاد اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنـــا فللموت ما تلد الوالده[2]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر انه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميّالة الى التقشف والتصوف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ او هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟.

ونجد (عمرو بن كلثوم) في جملة من آمـن بالقضاء والقدر ، وبأن الموت مقدر لنا ، ونحن مقدرون له ، وذلك في قوله :

وأنّا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا[3]

وهو من المؤمنين بالله ، الحالفين به . وذلك كما جاء في بيت شعر نسبوه اليه :

معاذ الله يدعوني لحنث ولو أقفرت أياماً قتار[4]

وكما ورد في أشعار أخرى تنسب اليه .

والشاعر (لبيد) من هذه الطبقة التي اعتقدت ان الله خالق كـــل شيء ،

---

١ البيان والتبيين (١/٢٢٦) ، شعراء النصرانية ، القسم الرابع (ص ٦٠٧) .
٢ شعراء النصرانية ، القسم الرابع (٦٠٤ وما بعدها) .
٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٨٤) ، (البيت رقم ٧ من المعلقة) ، شرح القصائد السبع للزوزني (١٤٦ وما بعدها) ، جمهرة أشعار العرب (١٢٠) .
٤ المحبر (٤٧١) .

يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فلا دخل للانسان في عمله . تراه يقول :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البالِ ومن شاء أضل[1]

وتؤدي لفظة (منا) معنى القدر ، ومنها (الماني) بمعنى القادر ، و(المنيّة) بمعنى الموت ؛ لأن الموت مقـدر بوقت مخصوص[2] . وهي من الكلمات السامية المشتركة الواردة في مختلف لهجات هذه المجموعة . ولهذه الكلمة صلة باسم الإلـه الكنعاني (منى) ، وهو إلـه القدر . ولها أيضاً صلة بالصنم (منوات) (منوت) من أصنام ثمود ، وبـ (مناة) من أصنام الجاهليين[3] .

ومن أصل (منـا) (المنايا) الواردة في أشعار الجاهليين[4] . و (الماني) الواردة في شعر منسوب الى سويد بن عامر المصطلقي ، هو :

لا تأمن الموت في حلّ ولا حرم إن المنـايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غـير محتشمٍ حتى تلاقي ما يمنى لك المـاني

في رواية . و :

لا تأمـنن وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يُمْني لك المـاني
فالخـيرُ والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديـدان

---

١ الاغاني (١١٢/٩) ، (١٢٦/٢١) .

٢ تاج العروس (٣٤٧/١٠ وما بعدها) .
ان المنيـــة منهـــل لا بـد أن أسقى بكأس المنهـل
الاغاني (٧٩/١٥) ،
واذا المنيـة أنشبت أظفارهـا ألفيت كـل تميمـة لا تنفـع

ولو كنت في بيت تسد خصاصه حوالي مـن أبنـاء نكرة مجلس
ولو كان عندي حازيـان وكاهن وعلـق أنجـاسا عـلى المنجس
اذا لاتتنى حيـث كنـت منيتـي يخـب بهـا هاد الى معـرس
Caskel, S. 29.

٣ Caskel, S. 22, Ency. Religi. I, p. 661.

٤ وأن المنايـا ثغـر كـل ثنيـة فهـل ذاك عما يبتغي القوم محضر

وغبـراء مخشي رداهـا مخوفـة أخوهـا بأسباب المنايـا مغرر
ديوان عروة بن الورد (ص ٣٨) ، (تحقيق نولدكه) ، كوتنكن ١٨٦٣) .

على رواية أخرى .

وفي هذا البيت الذي ينسبه بعض الرواة الى أبـي قلابة الهُذلي :

فلا تقولن لشيء سوف أفعله حتى تلاقي ما يمني لك الماني[1]

وتؤدي كلمة (المنون) معنى الدهر والموت[2] ، وقد تسبق بكلمة (ريب) في بعض الأحيان ، فيقال : (ريب المنون) كما يقال (ريب الدهر)[3] .

ويرى (نولدكه) ان هذه الكلمات هي أسماء آلهة ، وليست أسماء أعـلام ، هي أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية ، وهي مما استخدم في لغة الشعر للتعبير عن هذه العقائد الدينية . فالزمان مثلاً أو الدهر ، لا يعنيان على رأيه هذا إلهـاً معيناً ، ولا صنماً خاصاً ، انما هي تعبير عن فعل الآلهة في الانسان[4] .

وبعض هذه الكلمات — في رأي (ولهوزن) — مثل قضاء ومنيّة ، هي بقايا جمل اختصرت ، ولم يبق منها غير بقايا ، هي هذه الكلمات . فكلمة قضاء هي بقية جملة أصلها (قضاء الله) ، سقطت منها الكلمة الأخيرة ، وبقيت الأولى . وكذلك الحال في منية ، فإنها بقية جملة هي : منية الله ، سقط عجزها ، وبقي صدرها . وهي تعني ان المنية هي منية الله تصيب الانسان[5] .

يبدو ان من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا وأمثالها في الشعر ونسبة الفعل اليها ، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه أو نسبة الفعل الى الله . فهل يعني هذا ان الجاهليين لم يكونوا يعلمون ان لله سلطاناً وحولاً ، وان المنايا والحتوف وكل خير أو مكروه هو من فعل الله ؟ الواقع ان هذا الذي نذكره يذهب اليـه أهل

---

١ تاج العروس (١٠/٣٤٧) ، اللسان (١٥/٢٩٢) ، (منى) .

٢ تاج العروس (٩/٣٥٠ وما بعدها) .

٣ « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ، الطور ، الآية ٣٠ .

أإن رأت رجـلا أعشى أضـر بـه ريب المنـون ودهر مفند خبـل

نخوفني ريب المنـون وقد مضى لنـا سلف فيس معـا وربيـع

ديوان عروة بن الورد (ص ٤٣) ، نولدكه) ،

أمن المنـون وريبهـا تتوجـع والدهـر ليس بمعتب مـن يجزع

Caskel, S. 41.

٤ Ency. Religi., I, p. 661.

٥ Reste, S. 222.

الجاهلية ولم يقصدوه . وما ذكر الدهر في الشعر ، إلا كتشكّي الناس من الزمان او من الحظ او النصيب في هذه الأيام . وشكواهم من ذلك لا يعني تحديد سلطان الله ، أو نكرانه ، وانما هو بقية من تصور انساني قديم بنسبة كل فعل وعمل الى قوة خفية هي القوة العاملة ، وهي ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان . وذلك لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين وبلاء الانسان فيه ، وبقاء الأرض والكون، ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة ، فنراها عند القبائل البدائية ونراها عند الغربيين .

ولا يقتصر هذا الاستعمال على الشعر وحده ، بل نجد ذلك في النثر وفي كلام الناس الاعتيادي . لذلك لا أرى صحيحاً ما ذهب اليه بعض المستشرقين من ان نسبة الفعل الى الدهر هو من الاستعمالات الخاصة بالشعر[1] .

وهناك كلمات أخرى تشير معانيها الى هذه الفكـــرة فكرة القدر ، وان الخير والشر وكل ما يصيب الانسان هو مقدر مكتوب . وهي نظـرة لا بد أن تكون قد انبعثت من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومـن أثر المحيط في الانسان . ومن شعور الانسان بأن قوى خفية تلعب بـــه وتوجهه حيث يشاء[2] . فنسب كل ذلك الى غيره ، وصير نفسه مسخراً موجهاً كالريشة في مهب الرياح.

وتؤدي عقيدة القدر بصاحبها الى التشاؤم ، والى القنوط والاستسلام . والتوجع والتألم ، والتشكي من عبث الدهر بالإنسان ، وهو ليس له دخل في رده وصده. وقد تؤدي بمعتنقها الى الخمول والكسل ، والى العجز في هذه الحياة ، والى ردّ كل مـــا يصيبه بسبب كسله وعدم استخدام قابلياته ومواهبه الى غدر الدهر به وحنق الزمان عليه ، وتلاعب الحدثان بأموره . ونجد أكثر شعراء أهل الجاهلية ، هم على هذه الشاكلة ، يبكون أيامهم ، ويتذكرون الماضي ، ويتوجعون، لأنهم سائرون نحو مستقبل مؤلم موجع،لا حول فيه لإنسان ولا قوة . انه عالم الشيخوخة أو عالم الموت أو عالم الفقر . وأمثال ذلك من العوالم المفزعـــة . يستوي في ذلك امرؤ القيس والشعراء المخضرمون . فأنت اذا تصفحت دواوينهم قلـــما تجد فيهم شاعراً متفائلاً ، أو شاعراً غير مبال بالأيام ، لا يهمه ما يأتي به الدهر ، حتى

---

١ Caskel, S. 54.

٢ والمـال ما خـول الالـــه فـــلا بـــد لـــه أن يحـوزه قـــدر
شرح ديوان زهير (ص ٣١٤) .

ليخيل الينا أن هذا طبع . والواقع أننا نجد الشعراء في الجاهلية والإسلام وأكثر الكتّاب والخطباء على هذا المنوال ، مما يحمل المرء على القول بوجود التشاؤم في طبع العرب .

وموضوع (القدر) من المواضيع التي حيّرت المسلمين أيضاً . فانقسموا في ذلك الى مذاهب . وقد مرّ الرسول بناس كانوا يتذاكرون في القدر ، فقال : انكم قد أخذتم في شعبين بعيدي الغور . أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه، كالماء الغائر الذي لا يقدر عليه[1] .

وقد ذكر علماء التفسير أن قريشاً خاصموا الرسول في القدر ، وأن رجلاً جاء الى الرسول فقال : يا رسول الله ففيم العمل ؟ أفي شيء نستأنفه ، أو في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، سنيسره لليسرى، وسنيسره للعسرى[2] . ويظهر من ذلك أن قريشاً أو جمعاً منهم ، لم يكونوا يؤمنون بالقدر ، بل كانوا يؤمنون بأن فعل الانسان منه ، وان لا لأحد من سلطان في تصرفه وفعله .

القدرية :

وذكر ان الشاعر (الأعشى) كان قدرياً ، يرى ان للانسان دخلاً في فعله، وأن له سلطاناً على نفسه ، حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا[3]

فالانسان مسؤول عن فعله ، ملام على ما يرتكبه من قبيح . فالله عادل ، لا يجازي الانسان إلا على فعله ، ولو كان قد قدر كل شيء له ، وحتمه عليه كان ظالماً . وقد أخذ الأعشى رأيه هذا « من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك » .

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٧) ، (غور) .
٢ تفسير الطبري (٢٧/٦٤ وما بعدها) .
٣ الاغاني (٩/١١٢) ، (٢١/١٢٦) .

فنحن أمام عقيدتين . عقيدة تقول : إن الله خالق كل شيء ، وان فعل الانسان من تقدير الله وأمره، فهو يفعل بفعله وبحسب ما قدره له ، ورأي يقول ان الانسان خالق فعله ، فهو حرّ مختار ، ولهذا فهو وحده مسؤول عن عمله ، من خير أو شرّ . والرأي الأول أظهر عندهم وأقوى من الرأي الثاني .

الحظ :

وحظ الإنسان ، أي ما يصيبه في حياته ، هو جزء من هذا الموضوع أيضاً . مشتبك به ، متصل بأجزائه . والحظ في اللغة النصيب والجد . أو خاص بالنصيب من الخير والفضل[1] . والنصيب ، هو ما قدر وما قسم لك ، أي حظك. والحظ[2] وهو (البخت) . وقيل : البخت من المعربات ، وقيل من الألفاظ التي تكلمت العرب بها قديماً[3] . وذكر علماء اللغة أن الجد البخت والحظ في الدنيا . ويفهم من الأمثلة الواردة في شرح معنى اللفظة ، أنها في معنى الحظوة والرزق[4] . أي في معنى الشيء الحسن المفرح مما يصيب الإنسان .

قالوا : والحظ موجود في المرزوق والمحروم ، وفي المحارف ، وفي القبائل ، فربما سعدت بالحظ ، وربما حظيت بالجد . وهو كذلك في الشعر وفي النباهة ، ورب عاقل فاهم أديب ، لا يكون إلا دائم الصبر على الشدة ، لسلطان الحظ على الإنسان[5] .

ونظرية (القسمة والنصيب) ، معروفة في الاسلام ، وقد بحث فيها علماء الكلام . فهي من الموضوعات التي بحثت في الجاهلية والاسلام . ونجد أحد الشعراء يقول :

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود

وهو بيت ينسب لسويد بن حذاق العبدي ، ويروى للمعلوط بن بدل القريعي ، وصدره :

---

١ تاج العروس (٥/٢٤٩) ، (حظ) .
٢ تاج العروس (١/٤٨٦) ، (نصب) .
٣ تاج العروس (١/٥٢٥) ، (بخت) .
٤ تاج العروس (٢/٣١٣) ، (جدد) .
٥ الحيوان (٢/١٠٢ وما بعدها) .

متى ما يرى الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد

أي « انما أتاه الغني لجلادته ، وحرم الفقير لعجزه وقلة معرفته ، وليس كما ظنوا ، بل ذلك من فعل القسام وهو الله سبحانه وتعالى ، لقوله : نحن قسمنا بينهم معيشتهم »[1] . وفي هذا المعنى قول الشهاب المقري:

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه[2]

وأهل الجاهلية يرجعون القسمة الى الدهر والزمان والحظ . فأبطل الاسلام ذلك، اذ جعلها بأمر الله وقدره . فالله هو مقدر الأقدار ، ومقسم القِسَمْ ، وموزع الحظوظ والأرزاق .

الطبع والطبيعة :

ومن الموضوعات التي لها صلة بالقضاء والقدر ، موضوع الطبع ، أي الخليقة والسجية التي جبل عليها الانسان . فرأي كثير من الجاهليين ، ان الانسان مجبول على طبيعته التي ولد فيها ، وكل انسان على طبيعته ، ولن يستطيع تبديل طبعه ، ولا تغيير السجايا ، لأنها مكتوبة على الانسان مسنونة ، ولا تبديل لما طبع المرء عليه[3] . وطبائع الانسان لا يغيرها إلا الموت . جاء في شعر لبيد :

فاقنع بما قسم المليك ، فإنما قسم الخلائق بيننا علامها[4]

وهو شعر قد يكون مما قاله في الاسلام .

و (زهير بن أبي سلمى) ، ممن يعتقدون بهذه العقيدة ، ويأخذون بهذا الرأي . فهو القائل :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم[5]

---

١ تاج العروس (٥/٢٤٩) ، (حظ) .
٢ المصدر نفسه .
٣ اللسان (٨/٢٣٢) ، (طبع) .
٤ اللسان (١٠/٨٦) ، (خلق) .
٥ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٢٤٠) ، (البيت ٥٨ من المعلقة) ، (القاهرة ١٩٦٤) .